الفصل الثالث

رحلات فى الأمم والبلدان

١

رحلات مبكرة

لعل أول رحلة فى تاريخ العرب الإسلامى هى رحلة فتوحاتهم الكبرى، فقد خرجوا من جزيرتهم ، وطافوا بأركان العالم الوسيط فى آسيا وإفريقية ، وجابوا البحر ، ودخلوا الأندلس ، واقتحموا جبال البرانس وتصايحوا بلغتهم وصلاتهم وأذانهم على الأبواب الجنوبية الغربية لفرنسا ، ونزلوا صقلية وحولوها إلى سلطانهم . وكانت للعلاقات التجارية قائمة بين البلدان التى فتحوها وبين الأمم والممالك المختلفة فى آسيا وأوربة . وظلت هذه العلاقات ، وقامت معها علاقات سياسية ، ورغبات مختلفة فى نفوس الأفراد للضرب فى مجاهل الأرض واكتشاف ما وراء العالم الإسلامى من أمم وشعوب وأحوال عمران . وكان للتجار اليد الطولى فى هذا الارتياد يبتغون الرزق فى مناكب الأرض وأقاليمها البعيدة .

وفى أخبار رحلاتهم البحرية السابقة ما يدل على أنهم طافوا حول شواطئ إفريقية الشرقية ، وكادوا لا يتركون جزيرة فى المحيط الهندى إلا نزلوها واتجروا فيها ، وبلغوا بتجارتهم سواحل المحيط الهادى ونزلوا ببعض جزائره، كما نزلوا فى الصين . وهم كذلك نزلوا فى الجزائر المنتشرة ببحر الروم ، وبعض جزائر المحيط الأطلسى من مثل جزائر كنارى .

وإذا كانوا قد اقتحموا البحار من حولهم ، فإنهم اقتحموا الأرض المعروفة

لهم، فجابوا أواسط إفريقية وتوغلوا فى مجاهلها ، ووضعوا أقدامهم فى أوربة ومرتفعاتها الشرقية والجنوبية وتوغلوا فيها ، كما توغلوا فى آسيا وصحاريها ومرتفعاتها الوسطى، وَطَّوفوا بالهند وصحراء جوبى ومروج منغوليا إلى الصين .

ولم يدوِّن العرب أخبار الرحَّالة الأوائل ،ولكنا لا نصل إلى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) ونقرأ كتبهم الجغرافية والتاريخية حتى نجدهم قد عرفوا معرفة دقيقة أخبار الأمم من حولهم ، مما يدل على كثرة الراحلين والسائحين . ومن أقدم من يذكرونهم فى هذا الباب سلام الترجمان الذى يقال إن الخليفة الواثق (٨٤٢ – ٨٤٧ م) أرسله فى بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السدَّ الذى بناه الإسكندر فى ديار يأجوج ومأجوج . وعادت البعثة تقص على الناس أخبار الصين وعجائبها . ومن هؤلاء الرحالة ابن وهب القرشى الذى يقال إنه استطاع لقاء ملك الصين وعرض عليه الملك صوراً للأنبياء ، ومن بينها صورة للرسول صلى الله عليه وسلم . ويقال إن هذه الرحلة كانت فى سنة ٨٧٠ م. وهذان الرحَّالتان إنما هما رمز لكثيرين وراءهما طوفوا فى آسيا وإفريقية ، يتجرون فى العروض وفى الرقيق . وإذا كان العرب قد نشروا الإسلام عن طريق السيف فى إيران والهند وشمالى إفريقية فإن التجار من ورائهم نشروه فى أقاليم لم يصل إليها الفاتحون فى آسيا كالصين وفى إفريقية كالسودان وعلى طول شاطئها الشرقى . وكثيراً ما كانت هذه الأقاليم الجديدة تطلب بعثات دينية من بغداد، تعلم الناس فروض الإسلام وما شرعه الله لمصلحتهم فى دنياهم وآخرتهم .

ومن أقدم هذه البعثات بعثة طلبها ملك البلغار من الخليفة المقتدر ، وكان كثير من البلغار قد دخلوا فى الإسلام ، وكانوا يقيمون حينئذ فى حوض نهر الڤولجا، أو كما يسميه العرب نهر أتلا . وأرسل الخليفة المقتدر سنة ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م بعثة جعل رياستها لابن فضلان . وقام بمهمته خير قيام ، ثم

عاد بعد مدة إلى بغداد ، فوضع كتاباً فى وصف رحلته إلى القوم ، وألم إلماماً دقيقاً بأحوالهم وعاداتهم وبكل ما بديارهم من مظاهر الحضارة والعمران ، ولم يصف شعبَ البلغار وحده ، بل وصف أيضاً الخزر والروس . ونشر هذا الكتاب أو هذه الرسالة بعض المستشرقين فى القرن الماضى ، ومما جاء فيها عن الروس :

« رأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم ، فنزلوا على نهر أتلا ، ولم أر أتم أبداناً منهم ، كأنهم النخل ، شقر حُمر ، لا يلبسون القراطق (القمصان) ولا الخفاتين (ضرب من الثياب) ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شِقّيه ، ويخرج إحدى يديه منه ، ومع كل واحد فأس وسكين وسيف . . . وكل امرأة منهم على ثديها حق مشدود من حديد أو من نحاس أو من فضة أو من ذهب على قدر حال زوجها »

وعرض لكثير من أحوالهم التى تدل على تأخرهم ، ووقف طويلا عند وصف حَرْقهم لموتاهم ، واحتفالاتهم لحرق رؤسائهم ، وما يصنعون فى ذلك من رسوم غريبة .

وهذه الرحلة أيضاً إنما هى رمز لرحلات العرب فى أوربة . ونحن لا نقرأ ما كتبه المسعودى فى مروج الذهب ، وقد عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حتى نؤمن بأن العرب قد توغلوا فى كل الأقاليم من حولهم ، فعرفوا جغرافيتها وتاريخها وأحوال سكانها معرفة دقيقة . ومن هذه المعرفة ملأ المسعودى كتابه المذكور وكتبه الأخرى الكثيرة بأخبار الأمم الأجنبية والإسلامية ، وكان هو الآخر رحّالة ، جاب المحيط الهندى وشواطئه فى إفريقيا وجزائره الكثيرة ؛ وزار الهند وبلاد الصين وبحر قزوين وآسيا الصغرى والشام ومصر وبلاد العرب . وتختلط فى كتاباته مشاهداته بتلك البلدان بمشاهدات غيره من الرحالة والسائحين .

٢

أبو حامد الأندلسى فى شرق أوربة

أحد الرحالة الأندلسيين ، عاش أكثر حياته فى القرن السادس الهجرى (٤٧٤ – ٥٦٤ هـ / ١٠٨٠ – ١١٦٩ م) وشغف بالرحلة ، فطاف بإفريقية الشمالية وصقلية ، وزار مصر والشام والعراق ، وتحول إلى ناحية البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغل فى بلاد البلغار على ضفاف نهر الڤولجا وبلاد الصقالبة وإقليم باشغرد الواقع بين البلغار والقسطنطينية . وسجل مشاهداته فى هذه الأقاليم والبلدان بكتابه « تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب » وله كتاب آخر يسمى « المعرب فى عجائب المغرب » .

ونشر بعض المستشرقين ما شاهده فى شرق أوربة ، وقد روى كثيراً من الأخبار عن الأقاليم الممتدة شمالى البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وهو يسميها « ويسوا » و « يورا » . وكان الإسلام ينتشر فى البلغار ، وقال إن سبب انتشاره هناك أن مسلماً متطبباً دخل هناك ، وكان الملك وزوجه مريضين قد يئس من شفائهما ، فعرض عليهما الإسلام إنْ هو شفاهما من مرضهما ، فأجاباه : نعم ، فعالجهما ودخلا فى دين الإسلام ، وأسلم معهما أهل تلك البلاد . وكان البلغار حينئذ ينزلون فى أواسط حوض الڤولجا ، وكان لهم مدينة تسمى باسمهم ، وقال أبو حامد إن طول النهار يبلغ عندهم عشرين ساعة فى الصيف وليلهم يبقى أربع ساعات ، وفى الشتاء ينعكس ذلك ، والبرد عندهم شديد جدا . والحر فى الصيف كذلك شديد ، أشد مما يكون فى كل الدنيا . ونحن نسوق طائفة من الأخبار التى رواها عن البلغار

وعما فوقهم من بلاد ويسوا ويورا ، وما يحاذيهم من بلاد الصقالبة ، قال :

« ويوجد ، فى أرض البلغار من عظام قوم عاد ، السنّ الواحد عرضه شبران وطوله أربعة أشبار ، ومن رأسه إلى منكبه خمسة أبواع ، ورأسه مثل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير . وتوجد تحت الأرض أنياب الفيلة و (الناب) أبيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مائتا مَنّ (المن نحو رطلين) وأكثر وأقل ، لا يُدْرَى من أى حيوان هو ، يُقْطَعُ ويحمل إلى خوارزم وخراسان ، وتتخذ منه الأمشاط والحِقاق وغير ذلك كما يتخذ من العاج ، وهو أقوى من العاج لا ينكسر .

وفوق هذه الولاية أمم لا عدد لهم يعطون الجزية لملك بلغار . . . ولهم ولاية تؤدى الخراج بينهم وبينها مسيرة شهر ، يقال لها «ويسوا» وولاية أخرى يقال لها « يورا » فيها يصطاد القندز والقاقم والسنجاب الجيد . والنهار يكون هنالك فى الصيف اثنتين وعشرين ساعة . ومنهم تجىء جلود القندز الجيد الفائق . والقندز : حيوان عجيب يكون فى الأنهار العظام ويتخذ بيوتاً فى البر إلى جانب النهر .

يقول : ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات يكون النهار عندهم فى الصيف طويلا جداً ، حتى إن التجار يقولون إن الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً ، وفى الشتاء أيضاً يكون الليل طويلا مثل ذلك . والناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تُتَّخَذُ فى زنجان وأبْهر وتبريز وأصفهان ، ولا يتخذون لها آلة ولا حلية إلا حديداً كما يخرج من النار . . . وذلك السيف هو الذى يصلح أن يحمل إلى يورا . وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواش إلا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل ، ويكثر عندهم السَّمُّور جدا ، ويأكلون لحمه . والتجار يحملون إليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم ، ويأخذون أثمانها جلود السَّمُّور ، ولهم فى ذلك ربح كثير . والطريق

إليهم فى أرض لا يفارقها الثلج أبداً . ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها ، طول كل لوح باع ، وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض ، وفى وسط اللوح موضع يضع الماشى فيه رجله ، وفيه ثقب قد شدّوا فيه سيوراً من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان فى رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه فى يده الشمال ، وفى يده اليمنى عصاً بطول الرجل . وفى أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة . ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح فى السفينة . فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً أن يمشى هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد ، وأى حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب فإنها تمشى عليه بخفة وبسرعة . والثعالب والأرانب فى تلك البلاد تبيضّ جلودها ، حتى تكون مثل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً تكون فى ناحية بلغار تبيض جلودها فى زمن الشتاء .

وتلك السيوف (يقصد السيوف التى تصنع فى بلاد الإسلام بدون نصاب ولا حلية) تُحْمَل من بلاد الإسلام إلى بلغار ، وفيها ربح كثير ، ثم يحملها البلغاريون إلى «ويسوا» موضع القندز ، ثم أهل ويسوا يحملونها إلى «يورا» يشترونها بجلود السمور وبالجوارى والغلمان . ثم كل آدمى يكون هناك يحتاج كل سنة إلى سيف يلقيه فى بحر الظلمات . فإذا ألقوا السيوف أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجبل العظيم تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافاً مضاعفة ، تريد أكلها ، فتفرّ الصغرى من الكبرى ، فتقرب من البر وتصير فى موضع لا يمكنها الرجوع [منه] إلى البحر ، فتبقى هناك ، وترجع الكبرى إلى البحر ، ويدخل أهل يورا إلى البحر فى السفن ويقطعون من جوانبها ، وليس عند

السمكة من ذلك حس ولا تتحرك ، فيملئون بيوتهم من لحمها ويصعدون على ظهرها وهى كالجبل العظيم. » ويروى أبو حامد هذه الأسطورة :

« ولقد حُدِّثْتُ ببلغار أن سمكة من تلك السمك فى بعض السنين ثقبوا أذنها ، وجعلوا فيه حبالا ، وجرّوا تلك السمكة ، فانفتح أذنها ، وخرج من داخلها جارية تشبه الآدمية ، بيضاء حمراء الخدين ، سوداء الشعر ، من أحسن النساء ، فأخذها أهل يورا وأخرجوها إلى البر ، وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح ، وقد خلق الله لها فى وسطها مثل جلد أبيض ، كالثوب الصفيق القوى ، من وسطها إلى ركبتها يستر عورتها ، كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت عندهم ، وقدرة الله تعالى لا نهاية لها » . ويقول :

« وأهل ويسو ويورا يُمْتَعُون فى الصيف من دخول بلاد بلغار ، لأنه إذا دخل فى تلك الديار منهم واحد فى شدة الحر يبرد الهواء والماء مثل الشتاء ، وتفسد على الناس زروعهم ! وهذا مجرب عندهم ! وقد رأيت فى بلغار زمان الشتاء جماعة منهم حمر الألوان زرق العيون ، شعورهم مثل الكتان إلى البياض ، يلبسون ثياب الكتان فى ذلك البرد ، ويكون على بعضهم فراء من جلود القندز الجياد . وشَعْر ذلك القندز إلى خارج مقلوباً ، ويشربون ماء الشعير الحامض مثل الخلّ ، فيوافقهم لحرارة مزاجهم ، لأكلهم لحم القندز والسنجاب والعسل . وفى بلادهم نوع من الطير الكبير ، لها مناقير طوال ، مقلوبة على اليمين وعلى الشمال ، الأعلى على اليمين ستة أشبار ، وعلى الشمال ستة أشبار مثل لام ألف . . . وإذا وقعت بيضة هذا الطير على الجمّد أو الثلج أذابته كما تذيب النار . »

ويمضى بنا أبو حامد إلى بلاد الصقالبة ، ويروى من أخبارهم عجائب وطرائف ، وهو يستهل حديثه على هذا النحو :

« ولما دخلتُ إلى بلاد الصقالبة خرجت من بلغار وركبت سفينة فى نهر الصقالبة وماؤه أسود مثل ماء بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) كأنه الحبر ، وهو مع ذلك حلو طيب صاف ، ليس فيه سمك ، وفيه الحيات السود الكبار ، بعضها على بعض ، أكثر من السمك ، لا تؤذى أحداً . وفيه حيوان مثل السِّنَوْر الصغير ، له جلد أسود يسمى سَمُّور الماء تحمل جلوده إلى بلغار . . . ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة ، كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير . . . ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذى لا شَعْر عليه ... وللصقالبة سياسات عظيمة ، إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدى بأى شىء من التعدى كان ، أُخذ من المتعدِّى جملة من المال ، فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته فى تلك الجناية ، فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو ، فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت . . . وبلادهم آمنة ، وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبىّ بيع هو وأولاده وداره ، ويعْطَى لذلك التاجر دينه . والصقالبة شجعان ، وهم على مذهب الروم فى النصرانية ، نسطورية ... وحُدِّثت عنهم أنهم كلّ عشر سنين يكثر السحر [عندهم] وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة ، فيأخذون كل عجوز فى ولايتهم ، فيشدون أيديهن فأرجلهن ويلقينهن فى النهر ، فكل من رسبت من العجائز فى الماء تركوها ، وغلموا أنها ليست بساحرة ، والتى تطفو على الماء يحرقونها بالنار » .

ويترك أبو حدمد إقليم الصقالبة إلى إقليم باشغرد ، ويقول إنه فوق بلاد الصقالبة بأربعين يوماً ، بين رياض وأشجار عالية ، ويأخذ فى سرد الأخبار عن هذا الإقليم ، ومما يقول فيه :

« ملك باشغرد يسمى كزالى ، وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مضاعفة ، لا تُحْصَى جنده ، وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يوماً

وأكثر ، وهو على مذهب الإفرنج (يريد أنه مسيحى) لأنه تزوج منهم ، ويغزو بلاد الإفرنج ويَسْبيهم ، وجميع الأمم يخافون من شره لكثرة جنده وشدة بأسه . . . وفى باشغرد بقر وحشية كبار أمثال الفيلة ، جلد الواحد منها حمل بغلين قويين ورأسه حمل عَجَلة ، يصطادونه ويسمى التَّيْتل وهو من أعجب الحيوان ، طيب اللحم ، سمين ، وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة » .

ويعود أبو حامد من هذه الديار مولياً وجهه نحو الشرق ، ويصل إلى إقليم خوارزم ، ويفيض فى الحديث عن هذا الإقليم . وواضح مما نقلنا عنه أن ملكة النقد للأخبار لم تكن واسعة عنده ، ويتبين ذلك مما رواه عن خروج فتاة من أذن سمكة ، وكان حريا أن يكذب هذا الخبر . ولكن لعله جاء به على سبيل القصص والإطراف بالحكايات . ومن أطرف ما مر فى حديثه عن إقليم يورا وصفه لسيرهم على الثلج وتنقلهم على سطحه بصورة مشبهة لما تعرضه علينا دور الخيالة .

٣

أسامة بن منقذ بين الصليبيين

أحد أبطال المعارك الصليبية كان أديباً شاعراً ، عاش فى القرن السادس للهجرة (الثانى عشر الميلادى) وعُمِّر طويلا (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ / ١٠٩٥ — ١١٨٨م) وهو من قلعة شَيْزر شمالىّ الشام وكان آباؤه أمراء هذه القلعة ، وكان ينازلهم الصليبيون ، ولهم معهم وقائع كثيرة ، وجَلَّى أسامة فى غير موقعة .

ونزل مصر ، وأقام فيها مدة فى أثناء الحكم الفاطمى ، وطاف ببلاد العرب والجزيرة . وكانت عنده موهبة قصصية ، وكان دقيق الملاحظة ، فسجل الحوادث

التى عاش فيها بمسقط رأسه ، وبمصر ، وقص كثيراً عن الصليبيين ، وكانوا يجلّونه ، واتخذ منهم غير صديق .

وكتابه « الاعتبار » هو المسرح الذى اختاره لتسجيل مذكراته ، وقد قصّر الباب الأول فيه على حروبه وأسفاره إلى دمشق ومصر ومشاهداته للصليبيين فى دياره أثناء الحرب وفى السلم . وهنا وهناك ينثر طرائف ما شاهده بنفسه فى حروبهم ، وكيف كان أهل الشام يذودون عن وطنهم بالنفس والنفيس .

ومن أطرف ما فى الكتاب حديثه عن طبائع الإفرنج وأخلاقهم ، وهو يصور ذلك فى قالب قصصى يوضح لنا فيه تأخرهم الثقافى وأنه لم يكن عندهم شىء من الفكر أو الفلسفة يقتبسها العرب عنهم ، وسخر من طرقهم فى القضاء ، ومايعتمدون عليه فى محاكماتهم من المبارزة ، ولاحظ على رجالهم نقص الغَيْرة على نسائهم ، وندعه يتحدث بنفسه ، راوياً عجائبهم فى الطب وغيره ، يقول :

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (بلدة فى شمالى لبنان) كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : أحضروا عندى فارساً قد طلعت فى رجله دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف (لعله جفاف اللبن فى الرضاعة) فعملت للفارس لُبَيْخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطيتُ مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجى ، فقال لهم هذا ما يعرف شىء يداويهم ! وقال للفارس أيما أحبّ إليك ، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، قال : أحضروا لى فارساً قويًّا وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحطّ ساقه على قطعة خشب كبيرة ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، تقطعها ، فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ، فما

انقطعت ، وضربه ضربة ثانية ، فسال مخّ الساق ، ومات من ساعته .
وأبصر المرأة ، فقال : هذه امرأة فى رأسها شيطان . . . احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف . فقال الشيطان قد دخل فى رأسها ، فأخذ الموسى وشق فى رأسها صليباً ، وسلخ وسطه حتى ظهر العظم وحكّه بالملح ، فماتت فى وقتها ، فقلت لهم : بقى لكم إلىّ حاجة ؟ قالوا لا !

وكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا (سكنوا البلاد) وعاشروا المسلمين .

وليس عندهم شىء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر ، فيأخذ المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها والزوج واقف بناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى .

ودخلتُ فى الحمام بمدينة صور ، فجلست فى خلوة فيها ، فقال لى بعض غلمانى : فى الحمام معنا امرأة . فلما خرجت جلست على المصاطب ، وإذا التى كانت فى الحمّام قد خرجت ، وهى مقابلى قد لبست ثيابها ، وهى واقفة مع أبيها ، ولم أتحقق أنها امرأة ، فقلت لواحد من أصحابى : بالله أبصر هذه أمرأة هى ؟ . . . فالتفت إلىّ أبوها ، وقال : هذه ابنتى ماتت أمها ، وما لها من يغسل رأسها ، فأدخلتها معى الحمام وغسلت رأسها ، فقلت : جيدٌ ما عملتَ . هذا لك فيه ثواب .

وحضرتُ بطبرية فى عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما فى رأس الميدان ، وتركوا فى رأسه الآخر خنزيراً سمّطوه وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين العجوزين ، ومع كل واحدة منهما سَريّة (طائفة) من الخيّالة يشدون منها ، والعجوزان تقومان وتقعان

على كل خطوة ، وهم يضحكون ، حتى سبقتْ واحدة منهما ، فأخذت ذلك الخنزير فى سبقها .

وشهدتُ يوماً بنابلس ، وقد أحضروا اثنين للمبارزة . وكان سبب ذلك أن حراميّة من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فاتّهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : هو دلّ الحرامية على الضيعة ، فهرب ، فأنفذ الملك (ملك أورشليم) من قَبَضَ أولاده ، فعاد إليه ، وقال أنصفنى أنا أبارز الذى قال عنى : إنى دللت الحرامية على القرية ، فقال الملك لصاحب القرية المُقْطع (الإقطاعى) أحضرْ من يبارزه ، فمضى إلى قريته ، وفيها رجل حدّاد ، فأخذه وقال له : تبارز إشفاقاً من المقطع على فلاّحيه ، أن يقتل منهم واحد ، فتخرب فلاحته . وشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوى . . . يمشى ويجلس ، يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذى طلب البراز شيخ إلا أنه قوى النفس يزمجر ، وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند (Viscount) وهو شحنة البلد (الذى يضبطها من جهة الحاكم) فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة ، والتقيا ، فكان الشيخ يازّ (يشدّ) ذلك الحداد وهو يتأخر ، حتى يلجئه إلى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم . فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما . ونفع الحداد إدمانه على ضرب المطرقة ، وأعيا ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه فى عينيه . . . ثم قام عنه ، وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا فى رقبته فى الوقت حبلا وجرّوه . وجاء صاحب الحدّاد وأعطاه غفارة (رداء للرأس) وأركبه خلفه وأخذه وانصرف ، وهذا من جملة فقههم ، لعنهم الله » .

وأسامة بذلك يعطينا صورة واضحة عن حياة الصليبيين حين استقروا فى الشـــام وكونوا بها مستعمراتهم التى أزالهم عنها فيما بعـــدُ صلاحُ الدين

وخلفاؤه من الأيوبيين والمماليك، وقد قصّ طرائف عن بطولة النساء من العرب فى كفاح القوم ، وكيف كُنّ يؤثرن الموت على االوقوع أسيرات فى أيدى الصليبيين ومما يقصه من ذلك هذه الحادثة ، إذ يقول :

« كان فى جند الجَسْر رجل كردى ، يقال له أبو الجيش ، له بنت اسمها رفول ، قد سباها الإفرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه يوماً : سبيتْ رفول ! فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا فى جانب الماء سواداً ، فقلنا لبعض الغلمان : اسبحْ وأبصرْ ما هذا السواد . فمضى إليه ، فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق،وقد رمت نفسها من فوق فرس الإفرنجى الذى أخذها،فغرقت ، وعلق ثوبها فى شجرة صفصاف ، فسكنت لوعة أبيها أبى الجيش . »

٤

عبد اللطيف البغدادى فى مصر

عالم بغدادى كبير كان واسع الثقافة ، درس الفلسفة والطب وعلوم الدين واللغة ، وترك مؤلفات كثيرة فى كل فن . ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م وطاف بالشام ومصر ، وأقام فى الأخيرة فترة يغلب على الظن أنها كانت فيما بين سنتى ٥٩٧ ، ٥٩٩هـ (١٢٠٠، ١٢٠٢ م) فإنه وصف قحطاً أصاب مصر فى تلك المدة ، وقد بالغ فى وصفه ، وقال إن الناس كانوا يأكلون لحوم الموتى !

وهذا الوصف ضمنه كتابه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . والكتاب طُرْفَةٌ من طُرَف كتب الرحلات ، فإنه كان

ناقداً بصيراً ، وعالماً فيلسوفاً ، فلم يصف ما شاهده فقط بل درسه ومحَّصَه ، وقد قسم الكتاب إلى مقالتين ، وقسَّم المقالة الأولى إلى ستة فصول ، تحدث فى الفصل الأول عن خواص مصر العامة ، فقال إنها واد تكنفها الجبال والصحارى ، والنيل ينساب فيها ، ويتشعب بأسفل الأرض ، وجميعُ شُعَبه تصب فى بحر الروم . وذكَر للنيل خاصتين طول مسافته وفيضانه فى نهاية الصيف ، ولاحظ أن أرض مصر رملية ، ولكن يأتيها النيل بطين أسود فيه دسومة كثيرة ، وكل سنة يأتيها طين جديد ، ولهذا تزرع جميع أراضيها ولا يُراح شىء منها كما يُفْعَل فى العراق .

وعقد الفصل الثانى من هذه المقالة للنباتات ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، وَصْفَ عالم فيلسوف ، وهو يستهله بالحديث عن البامية ، فيقول :

« من ذلك البامية ، وهى ثمر بقدر إبهام اليد . . . شديد الخضرة ، إلا أن عليه زِئْبراً مشوكاً ، وهذا الثمر مخمس الشكل يحيط به خمسة أضلاع ، فإذا شُقَّ انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز ، وفى تلك الأبيات حبّ مصطفّ مستدير أبيض ، أصغر من اللوبيا ، هشّ ، يضرب إلى الحلاوة ، وفيه قبض ولعابية كثيرة ، يطبخ أهل مصر به اللحم ، بأن يُقْطَع مع قشوره قطعاً صغاراً ، ويكون طعاماً لا بأس به ، الغالب على طبعه الحرارة والرطوبة ، ولا يظهر فى طبخه قيض ، بل لزوجة » .

ويمضى على هذا النحو الدقيق فى وصف بقية نباتات مصر وفواكها ، وفى الفصل الثالث يتكلم عما تختص به مصر من الحيوان مما يمشى على الأرض أو يجرى فى النيل أو يصاد من البحر الرومى ، يقول :

« ومن ذلك التِّرْسة ، وهى سلحفاة عظيمة ، وزنها نحو أربعة قناطير إلا أن جفنيها أعنى عَظْم ظهرها كالتِّرْس ، له أفاريز خارجة عن جسمها نحو الشبر ، ورأيتها بالإسكندرية ، يُقْطَع لحمها ويباع ، كلحم البقر ،

وفى لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان ، ويخرج من جوفها نحوُ أربعمائة بيضة ، كبيض الدَّجاج سواء ، إلا أنه لين القِشْر . واتخذتُ من بيضها عجّة ، فلما جمد صار ألواناً ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيهاً بألوان اللحم . ومن ذلك الدلينس (أم الخلول) وهو صدف مستدير إلى الطول . . . ينشقّ عن رطوبة مخاطية بيضاء ، ذات نكتة سوداء ، يعافها الناظر ، وفيه ملوحة عذبة ، زعموا ، ويباع بالكَيْل » .

ويتحدث فى الفصل الرابع عن آثار مصر العجيبة حديث العالم المحقق ، وكأنه عالم عصرى من علماء الآثار ، ونحن نعرض طائفة من أقواله فى هذا الفصل وصَفَ فيها الأهرام وأبا الهول ، يقول :

« ومن الآثار القديمة الأهرام ، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها ، وهى كثيرة العدد جدا ، وكلها بَبَرِّ الجيزة ، وعلى سَمْت مصر القديمة ، وتمتد فى نحو مسافة يومين ، وفى بوصير منها شىء كثير ، وبعضها كبار وبعضها صغار . . . وبعضها مدرَّج وأكثرها مخروط أملس . . . وأما الأهرام المتحدث عنها المشار إليها الموصوفة بالعظم فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط ، وبينها مسافات يسيرة ، زواياها متقابلة نحو المشرق ، واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد ، وبهما أولع الشعراء ، وشبهوهما بنهدين ، قد نهدا فى صدر الديار المصرية ، وهما متقاربان جداً . . . وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع . . . وتجده صغيراً بالقياس إلى الآخرين ، فإذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه ، وحَسَرَ الطرفُ عند تأمله . وقد سُلك فى بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان ، ولذلك صبرتْ على ممر الزمان ، بل على ممّرها صبر الزمان ، فإنك إذا تبصَّرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استُهلكتْ فيها ، والعقول الصافية قد أفرغتْ عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضتْ عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد

أخرجتها إلى الفعل مثلا هو غاية إمكانها ، حتى إنها تكاد تحدّث عن قومها وتُخبر بحالهم ، وتنطق عن علومهم وأذهانهم ، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم . . . وإن المُسَّاح ذكروا أن قاعدة كل منهما أربعمائة ذراع طولا فى مثلها عرضاً . . . وأما الذى شاهدته من حالهما فإن رامياً كان معنا رمى سهماً فى قطر أحدهما وفى سمكه، فسقط السهم دون نصف المسافة ، وخبّرنا أن فى القرية المجاورة لهما قوماً قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة ، فاستدعينا رجلا منهم ورضخنا له بشىء ، فجعل يصعد فيها ، كما يرقى أحدنا فى الدرج ، بل أسرع ... وفى أحد هذين الهرمين مدخل ، يلجه الناس، يفضى بهم إلى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك . . . وهذا المدخل ليس هو الباب المتخذ له فى أصل البناء ، وإنما هو منقوب نقباً صودف اتفاقاً . . . وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية ، يكون طول الحجر منها ما بين عشرة أذرع إلى عشرين ذراعاً ، وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاث ، وعرضه نحو ذلك ، والعجب كل العجب فى وضع الحجر على الحجر بهندام ، ليس فى الإمكان أصح منه ، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين ، كأنه الورقة لا أدرى ما صنفه ولا ما هو . وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه . وهذه الكتابات كثيرة جدا .

وعند هذه الأهرام بأكثر من غَلْوَة (مقدار رمى السهم) صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول . . . وفى وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطلاوة ، وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحة بهاء وجمال ، كأنه يضحك مبتسما . وسألنى بعض الفضلاء ما أعجبُ ما رأيت ؟ فقلت تناسب وجه أبى الهول ، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة ، كما تصنع الطبيعةُ الصورَ متناسبة . . . والعجب من

مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها ، وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله » .

وينتقل إلى الحديث عن عين شمس واستظهر أنها كانت بيت عبادة ! وتحدث عن صورها وتماثيلها ومسلتيها المشهورتين ، ووصف المسلة بأنها « قاعدة مربعة ، طولها عشر أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكاً قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض ، ثم أقيم عليها عمود مربع مخروط ، ينيف طوله على مائة ذراع ، يبتدئ من قاعدة ، لعل قطرها خمس أذرع ، وينتهى إلى نقطة ، قد ألبس رأسها بقلنسوة نحاس ، إلى ثلاث أذرع منها كالقمع » . وتحدث عن الإسكندرية وعمود السوارى بها ووصفه وصفاً دقيقاً ، ثم تحدث عن منف التى كان يسكنها الفراعنة وقال فيها : « هذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الأمم إياها من تعفية آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها وآلاتها وإفساد أبنيتها وتشويه صُوَرها ، مضافاً إلى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعداً ، تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم المتأمل ، ويُحْصَرُ دون وصفه البليغ الملسن » . وأطال فى وصف آثار منف ومقابر الفراعنة التى تملأ الوادى ، وعرض لتخريب المصريين لها بحثاً عن الذهب المدفون مع الموتى ، وتلوّم من يحاولون نقض هذه الآثار من ملوك الإسلام ، وقال : « ما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار ، وتمنع من العبث فيها والعَيْث بها وإن كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح ، منها لتبقى تاريخاً يتنبّه به على الأحقاب . »

وعقد الفصل الخامس من المقالة الأولى فى هذا الكتاب للحديث عن غرائب الأبنية المستحدثة والسفن ووقف طويلا عند الحمامات وأشاد بها وبأحواضها وما يتّخذ فيها من مقاصير . وخص الفصل السادس بما فى مصر من غرائب الأطعمة .

أما المقالة الثانية فقد قسمها إلى ثلاث فصول ، جعل الفصل الأول منها للنيل وكيفية زيادته وعلل ذلك وقوانينه ، وأما الفصلان الثانى والثالث فجعلهما للكلام فى حوادث سنتى ٥٩٧ و ٥٩٨ هـ . وكان قد تصادف وجود قحط وظهور وباء بمصر ، فأفاض فى وصف ذلك وكثرة ما كان من موتى وفقر ماحق ساحق .

٥

رحلات مختلفة

ووراء هذه الرحلات فى الأمم والبلاد كثير من الرحلات التى دوّنها كبار العلماء والفلاسفة والأدباء من العرب ، وسجلوا فيها مشاهداتهم وخبراتهم . ولعل أكبر رحالة فيلسوف عند العرب هو البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م وقد خصّ برحلته الهند ، وهو فارسى من إقليم خوارزم ، صحب السلطان محموداً الغزنوى فى فتوحاته المشهورة بالهند، واستقر فيها أربعين عاماً يدرس ويفحص ، واستطاع أن يتعلم لغتها القديمة السنسكريتية .

والبيرونى من ذوى العقول المتفلسفة الكبيرة التى يفخر بها العرب، وقد دون مشاهداته بالهند فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ». والكتاب ليس رحلة بالمعنى الذى نعرفه فى كتب الرحلات ، وإنما هى موسوعة لجغرافية الهند وتاريخها ومعارفها فى العلوم وخاصة الرياضة والفلك . وهو يقف دائماً للمقارنة بين المذاهب الفلسفية اليونانية والحكمة الهندية وما يتصل بها من مذاهب التصوف عند القوم . ومن طريف ما لاحظه فى هذا الصدد أنه لم يتح للهند أمثال فلاسفة اليونان ممن هذبوا الأفكار والمعارف ووصفوها فى

قواعد وقوانين متسقة ، ولذلك كانت كتبهم يختلط فيها الغث بالسمين والخزف بالصدف . ومعنى ذلك أنه لم يكن للهند منهج علمى ، يخلّص عقل مفكريها من الخرافات والأوهام .

والكتاب ملىء بخرافاتهم وأساطيرهم وعباداتهم وما يؤمن به البراهمة وقديسوهم ، ومن أهم ما فيه حديثه عن رسومهم فى دينهم وقرابينهم وحجّهم وصدقاتهم وما يبيحونه ويحرمونه من المطاعم والمشارب ، ومن قوله فى ذلك :

« الإماتة فى الأصل محظورة عليهم بالإطلاق ... ولكن الناس يتقرّمون إلى اللحم ، وينبذون فيه وراء ظهورهم كل أمر ونهى ، فيصير ما ذكرناه مخصوصاً بالبراهمة ، لاختصاصهم بالدين ومنع الدين إياهم من اتباع الشهوات ، كالمثال فيمن هو فوق أساقفة النصارى من مطران وجاثليق وبطرك . . . وإذا كان الأمر على هذا أبيحت الإماتة بالتخنيق وإمساك النفس فى بعض الحيوان دون بعض ، وحُرّمت الميتة من المباحات إذا ماتت حتف أنفها . فأما المباحات فهى الضأن والماعز والظباء والأرانب والجواميس والسمك والطير المائية والبرية منها كالعصافير والفواخت والدراريج والحمام والطواويس وما لا تعافه النفس مما لم يرد به حظر . والمنصوص على تحريمه البقر والخيل والبغال والأحمرة والأبعرة والفيلة والدجاج الأهلية والغربان والببغاء وبيض جميعها بالإطلاق ، والخمر » .

ويتحدث عن قضائهم وعقوباتهم وكفّاراتهم وما عندهم من تأديب وتغريم ومواريثهم وحرقهم لموتاهم وصيامهم وأعيادهم وأفراحهم وأيامهم المعظمة وأوقاتهم المسعودة والمنحوسة لاكتساب الثواب ومجامعهم وأنهارهم المقدسة وما يؤمنون به من أحكام النجوم ، وكل ما يتسمهم فى عاداتهم وطباعهم . وهو يفيض فى ذلك إفاضة الفيلسوف البصير ، الذى يعرف كيف يلاحظ وينقد ، مع دقة التفكير وعمقه .

وممن زاروا مصر وتحدثوا عنها الهروىّ السائح المتوفى سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م وهو ممن طافوا بالعالم الإسلامى وقد زار القسطنطينية وصقلية وغيرها من جزائر بحر الروم ، وعُنى بتدوين تطوافه ، ولكن من جهة خاصة ، هى ما شاهده من المساجد والأبنية والعمارات والأصنام والآثار والطلسمات ، وألف فى ذلك كتاباً سماه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » .

وربما اطلع على كتاب عبد اللطيف البغدادى عن مصر فإنه تابعه فى وصف آثارها ومعابدها وقبور فراعنتها وقال إنه دخل الحرم ، غير أنه يختلف عن البغدادى فى أنه لم يكن عالماً ناقداً ولا فيلسوفاً بصيراً ، فملأ كتابه بالأساطير والخرافات .

واشتهر الأندلسيون بكثرة ما كتبوا من رحلاتهم إلى المشرق ، وسنفرد لرحلتى ابن جبير وابن بطوطة فصلين خاصين . ووراء هاتين الرحلتين رحلات مختلفة لا يزال أكثرها مخطوطاً مثل رحلة العبدرى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وابن رُشيد السبتى المتوفى سنة ٧١١ هـ / ١٣١٢ م والبلوى فى القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) وقد عُنوا فى رحلاتهم بأخبار الأدباء والعلماء فى كل قطر شاهدوه . ويمكن أن نُدخل فى هذا الباب ما كتبه ابن خلدون باسم « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » ومعروف أنه ولد بتونس ورحل إلى غرناطة فى الأندلس ، واتصل وداخل ملوك المغرب ومصر ، وفيها ألقى عصا تسياره ، حيث ولى القضاء . وقد رافق السلطان الناصر فى تصدّيه لتيمور لنك وجيوشه بالشام . وهو يعطينا فى تعريفه بنفسه وبرحلته كثيراً من المعلومات عن عصره والبلدان التى زارها فى الأندلس وعلى طوال الشاطئ الإفريقى إلى الشام ، كما يعطينا كثيراً من المعلومات السياسية والتاريخية . وما زالت كتابة الرحلات مستمرة بعد ابن خلدون . يكتبها المغاربة والمشارقة حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث اتجه الرحالة إلى أوربة يصفون

مشاهداتهم فيها، ومن أشهر ما كتب فى ذلك رحلة رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا وقد سماها « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » وفيها وصف رحلته إليها مع البعث العلمى الأول من بعوث محمد على ، وكان فى سنة ١٨٢٤ مصوراً ما شاهده فى باريز من جوانب الحياة المادية والسياسية والثقافية تصويراً حيا يعبر عن حماسة هذا الشيخ ومبلغ ما أثرته الحضارة الفرنسية فى عقليته المصرية الشرقية .

والرحلة طريفة حقا . لأنها تصور لنا كيف كان المصريون فى النصف الأول من القرن الماضى يرون الحياة الفرنسية . وكيف كانوا يتصلون بها متأثرين . وكيف كانوا يحكمون على جوانبها المختلفة . غير أنه كتبها فى عبارة مسجوعة ، وكان حريًّا به أن يحذو حذو رحالتنا القدماء ، فلا يدخل السجع فى كتابه . ولا يجعله عائقاً دون تصوير ما يريد أن يصوره من حياة القوم .

ومن فصول الرحلة الممتعة فصل كتبه عن السياسة عند الفرنسيين . لاحظ فيه أن نظم الحكم هناك تختلف عن نظائرها فى مصر ، فملك فرنسا (وكانت قد عادت لها الملكية) لا يحكم كما يحكم محمد على حكماً مطلقاً ، وإنما يحكم بمقتضى دستور يحدد سلطانه ، وقد قرأ هذا الدستور ، واعتذر عن ترجمته . وكأنه كان يتمنى لو أخذ محمد على بهذا النظام الدستورى ، وترك النظام الفردى الاستبدادى الذى كان يحكم به مصر والمصريين ، والذى لم يكن يتقيد فيه بقوانين ولا ما يشبه القوانين .

وللمصريين بعد رفاعة كثير من الرحلات إلى أوربة ، تارة يذهبون إلى مؤتمرات ، وتارة يذهبون لغرض النزهة ، وفى الغرضين جميعاً كانوا يكتبون ويصفون ما يشاهدونه هناك ، من مثل ما كتبه أحمد زكى (باشا) ، وللبنانوى رحلة إلى الأندلس . ويمكن أن ندخل فى هذا الباب الملحق الذى أضافه محمد المويلحى إلى كتابه حديث عيسى بن هشام ، حيث وصف الغرب ومعرضاً من معارض باريس .

وبجانب ذلك توغل المصريون فى جنوب السودان يريدون أن يعرفوا منابع النيل ، وكان كثير من الغربيين قد سبقوهم إلى ذلك ، فشاركوهم وأسهموا معهم فى هذا الميدان . وعنى كثير من الرحالة على رأسهم البتانونى بوصف الرحلة إلى مكة المكرمة ، وكتابه « الرحلة الحجازية » ذائع مشهور ، وفيه كثير من المصوّرات ، وهو غنى بالمعلومات عن مناسك الحج . ولمحمد حسين هيكل « من وحى النبوة » وهى رحلة فى البلاد الحجازية ، كتبها بأسلوبه البليغ ، وقام أحمد حسنين برحلة فى الصحراء الغربية ، اكتشف فيها بعض واحات كانت مجهولة ، وصور رحلته فى جزءين بعنوان « فى صحراء ليبيا » واهتمّ بأرصاد فلكية مختلفة ، وعيّن مواضع جغرافية كثيرة ، وجلب معه طائفة من النماذج الجيولوجية . وممن يكثرون عن رحلاتهم فى الشرق والغرب ووصْف ما يشاهدون هنا وهناك محمد ثابت . وزار أمريكا محمود تيمور ودوّنَ مشاهداته فى كتابه « أبو الهول يطير » . ووراء من سميناهم كثيرون يكتبون عن الغرب والشرق والحجاز ، وإنمن الصعب أن نحصيهم لكثرتهم . ونعود إلى الوراء لنعرض أهم رحلتين خلفتهما عصورنا الوسطى ، وهما رحلة ابن جبير وابن بطوطة ، إذ لا تزال لهما شهرة مدوية إلى وقتنا الحاضر .